

مرتكزات التعمير والتحول نحو الحضرية (مدينة شرشال خلال العهد العثماني) Urban Development foundations and the Transition to Urbanization (The city of Cherchell during the Ottoman era)

د. / بن شامة سعاد

المركز الجامعي عبد الله مرسلّي-تيازة

البريد الإلكتروني: benchama.souad@cu-tipaza.dz

الملخص:

تعدّ المعطيات البشرية والمادية من أهم القواعد العمرانية، وأرضية لأسلوب العيش داخل المدينة. ومدينة شرشال من المدن التي تمّ التخطيط لها عمرانيا، تزامنا مع وصول عروج إليها، ومنه إلحاقها بعناصر التعمير البشري والمعماري والصناعي، فاشتهرت تاريخيا وأثريا بأحداثها السياسية والعسكرية والبنائية. عن الإشكالية البحثية، نقف عند تطبيقات قواعد تعمير مدينة شرشال، والظروف التي أحاطت بها. أما الأهداف البحثية، فهي في إطار استرجاع نموذج من أسس التعمير خلال العهد العثماني، ومنه الكشف عن الصورة النمطية لعمران مدينة شرشال خلال نفس العهد، وإحياء تناسبها تاريخيا وأثريا وسياحيا. **الكلمات المفتاحية:** شرشال؛ العهد العثماني؛ التعمير؛ الحضرية.

Summary:

Human and material data are considered the most important urban foundations and the basis for the way of life within a city. The city of Cherchell is one of the cities that was planned urbanistically, coinciding with the arrival of Arrouj, and the inclusion of human, architectural, and industrial development elements. It historically and archaeologically became famous for its political, military, and construction events

Regarding the research problem, we focus on the application of urban development rules in the city of Cherchell, and the conditions that surrounded it.

This research is about the urban planning of cherchell city during the Ottoman era. It examines the application of urban planning regulations and the circumstances surrounding it. The study aims to retrieve a model of the urban planning principles during that era, to reveal the typical image of urban development in cherchell, and to revive its historical, archaeological, and touristic significance.

Keywords: Cherchell, Ottoman era, urban development, urbanization.

مقدمة:

يعدّ التعمير من النشاطات البشرية على مرّ الفترات التاريخية، فأصبح انشاء المدن تقليداً تبنّته الأقوام في اطار السيرة البشرية، في هدف الاستقرار والأمن على كل المستويات، لضرورة التكامل المعيشي. وهو التقليد الذي استمر إلى الفترة العثمانية وعلى غرار أسهمت عوامل في تعمير المدن والتي منها مدينة شرشال، ومنه انتعشت المدينة من جديد بعد أن عرفت خرابها، وعرفت حضريتها لتوفر معطيات بشرية ومادية تعد من أهم القواعد العمرانية، وأرضية لأسلوب العيش داخلها. حتى اشتهرت بأحداثها السياسية والعسكرية والصناعية.

إنّ موضوع الحضريّة يفرض علينا التطرق إلى جوانب عديدة فعلية تتمثل في مختلف الأوضاع التي عرفتتها مدينة شرشال إثر إحياءها في الفترة العثمانية، فالنشاط الحضري الذي عرفته المدينة انسجم فيه تشارك عناصر بشرية محلية ووافدة تفاعلت مع معطيات طبيعية، انتجت بيئة حضرية. لكن أمام قلة المعلومات المتوفرة عن هذه المدينة وكذا ارتباطها بدار السلطان لاعتبار المدينة من مدنها حال هذا دون إمكانية التفصيل في الأوضاع السياسية (الإدارية والقضائية) والأوضاع العسكرية والحربية والأوضاع الاقتصادية (التجارة والزراعة والصناعة والحرف) والأوضاع الاجتماعية (السكان والتعليم والصحة).

نقف في الإشكالية البحثية عند أوجه المساهمات الفعلية والعملية في تحضّر مدينة شرشال خلال العهد العثماني، من خلال الأقطاب المشاركة فيه، الوافدين الأندلسيين والعثمانيين، دون إغفال العوامل البيئية المحلية التي كانت الأرضية المستقطبة والجاذبة التي مكنت من أحداث النقلة، وتغيير وجه المدينة وإصلاح خرابها. إن جاز لنا التعبير. هذا الأخير الذي أفقدها أهلية السكنى والعيش. كما نقف عند تطبيقات قواعد تعمير هذه مدينة شرشال، والظروف التي أحاطت بذلك.

أما الأهداف البحثية، فهي استرجاع صورة نمطية للعمران في الجزائر خلال العهد العثماني من خلال مدينة شرشال، باعتبارها عينة تمتلك بعض الملامح التي تؤكد ذلك إلى يومنا هذا، حيث أننا أمام مرحلة بينية للمدينة، نعترف بأهم حدث فيها وهو بدء التحول من خراب العصر الوسيط إلى تعمير العصر الحديث (العهد العثماني) إلى الاعتراف بحضريتها انطلاقاً مما شهد به حسن الوزان لشرشال في كونها "مدينة... صغيرة القدر ولكنها متحضرة".

1. موقع مدينة شرشال:

مدينة شرشال، مدينة ساحلية (الصورة 01)، تقع على بعد 90 كلم غرب الجزائر العاصمة، و25 كلم عن مقر ولاية تيبازة، وهي على الطريق الوطني رقم 11، على ارتفاع 30م عن سطح البحر. تتربع على

مسطح ضيق بين البحر وأطلس شرشال، حيث تقدر مساحتها بـ (95,70 كلم²)¹. وهي بين مدينتي الجزائر العاصمة وتونس².



الصورة 01: مدينة شرشال. عن: قولل إيرث.

2. لماذا مدينة شرشال؟ ولماذا مرحلة التعمير ومنه الحضرية؟

إنّ تتبّع المراحل العمرانية لمدينة شرشال وهي تسترجع مظهرها كمدينة لها من التفاعل داخلها وفي محيطها ما يرسم لها صورة حضرية، إنما نستند فيه بدءاً على ما جادت به بعض المصادر مع شحها من وصف فيه كثير من العموميات، ويفتقر نوعاً ما الدقة لهذه المدينة. وتبقى المعالم البنائية أكبر دليل يحفظ لهذه المرحلة تحولها وهي مرحلة مهمة تاريخياً وأثرياً. علماً أننا لسنا بصدد جمع أقوال المؤرخين لتأكيد الأحداث، وإنما تحليل المعطيات وربطها لقراءة نوعية للمظهر العمراني لمدينة شرشال.

3. العوامل الأساسية في خراب مدينة شرشال:

تبيّن بعض الأحداث التاريخية أن مدينة شرشال خربت مرتين منذ أن أقيمت كمدينة، أولهما في الفترة القديمة، حيث تعرضت لتخريب شديد على يد القوط (الوندال) طوال مدة تقرب من خمسمائة عام وهو ما يذكره حسن الوزان³، ولكنّها استرجعت عمرانها أثناء حكم العرب لها⁴، وظلّت على الحال ولكن كمدينة متواضعة لم يكن لها دور بارز وأن ميناءها حافظ على بعض نشاطه. وثاني خراب عرفته كان في العصر

¹ - ACHOURE, C., 2011, p. 344.

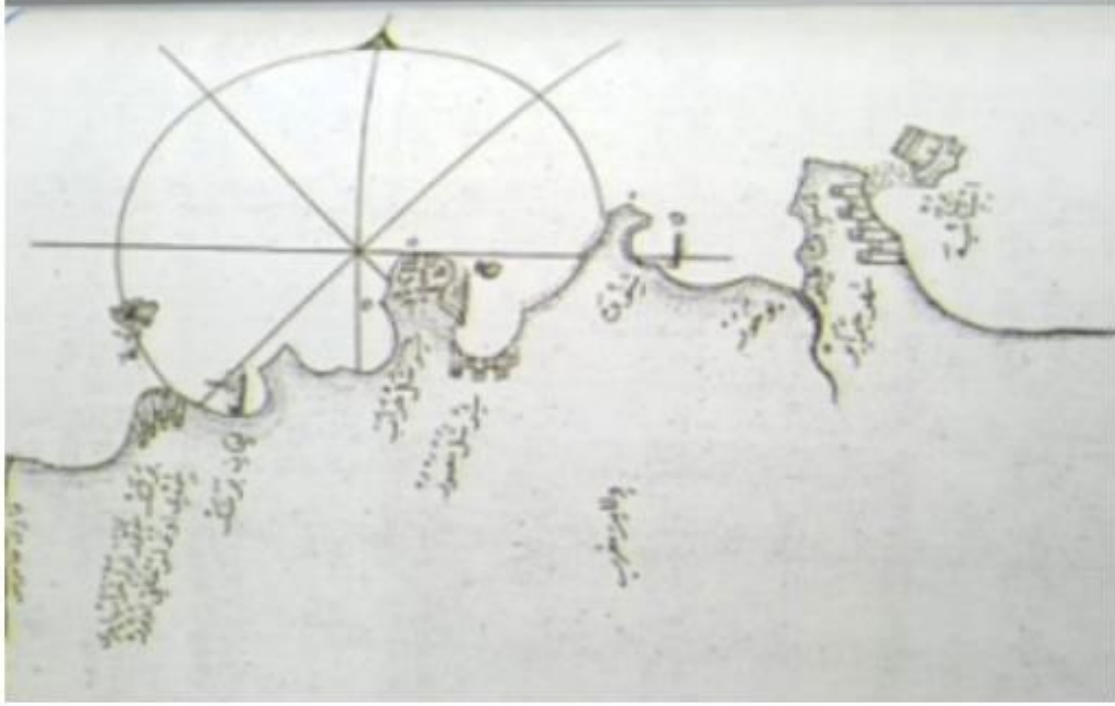
² - مارمول، كريخال، 1989م، ص. 355؛ وذكر أيضاً "تفصلها عن كلّ منهما مسافة خمسة عشر فرسخاً في البحر، أما عن طريق البحر فلا تصل المسافة بينهما إلى عشرة فراسخ، فهي على الساحل...".

³ - حسن بن محمد، الوزان الفاسي، 1983م، ص. 34.

⁴ - مارمول، كريخال، 1989م، ص. 356.

الحديث (الخريطة 01)، ونظرا لإقتصار موضوعنا على الفترة ما بعد الوسيطة فإننا سنخرج على فترة الخراب ونقتصر على صلبه.

تعد العوامل السياسية والمذهبية أكبر ما ينخر سياسة الدول ويعجل بهدم كيائها. وفيما يخص مدينة شرشال في المرحلة التي عرفت فيها المدينة افراغا عمرانيا، كان نتيجة أسباب وعوامل عرفها المغرب الأوسط بصفة عامة.



الخريطة 01: مدينة شرشال في حال خرابها .عن: بن مصباح.

مع انتشار الأدارسة بالمغرب العربي كله⁵. "كانت مدينة شرشال من ضمن المدن التي كانت تحت حكمهم لأزيد من قرن ونصف إلى أن دمرت مبانيها وأسوارها ومعابدها في حرب الخليفة الفاطمي بالقيروان⁶، وذلك سنة تسماية وخمسين الموافقة لسنة ثلاثمائة وستين للهجرة، وكان ذلك على يد عبد الله بن محيي الدين الذي أمر بتقتيل السكان المتشيعين للأدارسة. ومنه هجرت وبقيت خالية من السكان زهاء ثلاثمائة سنة حتى سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين⁷. وظلت على تلك الحال مدة ثلاثة قرون⁸. "لم تعرف المدينة

⁵- عبد الرحمان بن محمد، الجيلالي، 2007م، ص ص. 247، 248؛ وذكر: "حدود الجزائر الإدريسية" تمتد على الساحل من الريف غربا إلى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة شرقا ثم تعود بناحية تنس غربا وجنوب شلف إلى مليانة وتنتهي بمتيجة... حافظ على حسن الجوار مع الدولة الرستمية".

⁶- مارمول، كربخال، 1989م، ص ص. 356، 358؛ ذكر أيضا: "لكن الخليفة الشيعي (القائم) الذي أقام بالقيروان دمرها ولم يبق منها إلا الأطلال".

⁷- حسن، الوزان، 1983م، ص. 34؛ (أثناء الحروب القائمة بين ملوك تلمسان وملوك تونس) بتصرف.

⁸- مارمول، كربخال، 1989م، ص ص. 356، 359؛ لم تأت إعادة بناء هذه المدينة منذ أن خربها الخليفة (القائم...) ثم أن العرب لا يسعفون في ذلك لأنهم يستثمرون أراضي تلك الناحية.

إعادة بناء من السكان المحليين الذين توجهوا نحو خدمة أراضي المنطقة والتي وصفها كربخال على أنها كانت "فوق ربوة تمتد إلى داخل البحر ولم تكن بهذه الجهة مدينة بحرية غيرها." وهي المرحلة من الخراب التي وصفها -أيضا- البكري فيما ذكر أنها مدينة عظيمة غير مسكونة وبها مرسى⁹. وبتعبير آخر أن بعد خراب المدينة لمدة ثلاثة قرون تسترجع ملامح حيويتها حين بدت تعرف الوفود الأندلسي إليها¹⁰.

4. العوامل الأساسية في النقلة نحو الحضرية:

إن اختيار العثمانيين لمدينة شرشال لم يكن عشوائيا وإنما وفق معايير وأخذا بعين الاعتبار توفر بيئات محددة. بحيث بلغت المدينة نصيبها من التطور العمراني والحضرية بحسب سلامة ذلك الاختيار وهي التي لم تؤسس خلال الفترة العثمانية وإنما توفرت لها شروط تعميرها. وأهم العوامل التي ارتكز عليها العثمانيون في اختيار المدينة جغرافية المكان والإستراتيجية السياسية والعسكرية.

4.1. الموقع الساحلي:

إن موقع مدينة شرشال الساحلي بواجهته البحرية شجع عروج لان يجعل منها مركزا لنشاطه البحري سنة 1517م¹¹، والذي كان همه امتلاك المراكز البحرية ذات الموانئ خاصة حيث اعتبر اختيار المواقع لدى العثمانيين انشغال إداري وعسكري¹²، كما أن مدينة شرشال من أكثر المدن أهمية غرب الجزائر¹³. وقد ارتبطت أهمية موقع شرشال ببعض المعطيات منها قرب المدينة من مركز الحكم (مدينة الجزائر) والذي سهل عملية دعمها وامدادها، إضافة أنها تعتبر أقرب طريق إلى اسبانيا والتي تقطع المسافة في مدة عشرين ساعة¹⁴. وبقدر ما كان للموقع الساحلي تأثيره ايجابي على المدينة كان بالموازاة عاملا مسببا لمحاولات الاستيلاء عليها، منها حملة أندري دوريا (الخريطة 02).

⁹- أبو عبيد الله، البكري، ب. ت، ص. 81.

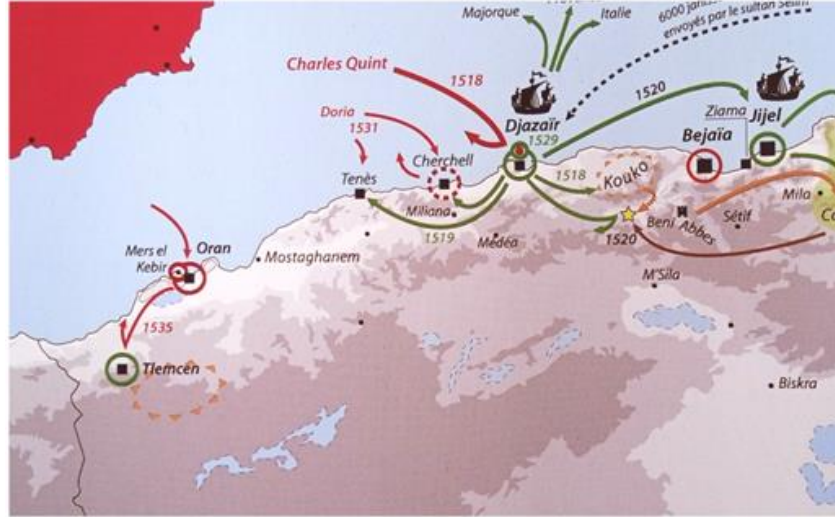
¹⁰- مارمول، كربخال، 1989م، ص. 356.

¹¹- مع عدد من المراكز الأخرى كالجزائر وتونس.

¹²- BENHAMOUCHE, M., 2008, p. 229.

¹³- SHALER, W., p. 183.

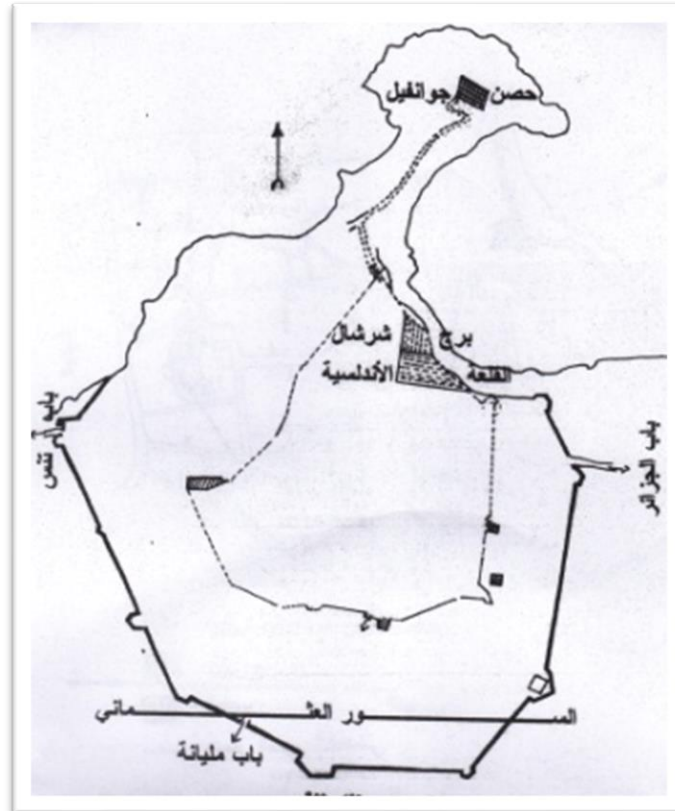
¹⁴- كورين، شوفالييه، 2007م، ص. 29.



الخريطة 02: موقع مدينة شرشال الساحلي (إثر محاولة الدخول إليها).

2.4. الطرق والانفتاح على المناطق المحيطة:

حين الحديث عن الطرق فإن المدينة عرفت توازنها من حيث علاقات بالمدن المجاورة لها والمناطق المحيطة بها، وما سهل لها ذلك الإنفتاح بأبوابها (**المخطط 01**) نحو المدن المهمة كالعاصمة وتونس ومليانة، إضافة إلى المدن الواقعة على المسالك مثل القليعة والبليدة، حيث لم تعرف المدينة العزلة.



المخطط 01: أبواب مدينة شرشال خلال الفترة العثمانية. عن: متحف شرشال.

4. 3. البيئة السياسية والإدارية:

قبل دخول عروج إلى مدينة الجزائر فإنه نزل بشرشال حيث وكانت في حكم قارا حسن، قضى عليه وجعل في المدينة حامية¹⁵ وذلك سنة 922هـ - 1516م ثم رجع إلى مدينة الجزائر في نفس التاريخ¹⁶. إن استباق عروج بدخول مدينة شرشال قبل مدينة الجزائر (العاصمة السياسية) لدليل كبير على الظرف السياسي المهم الذي سيفصل في درجة تحكم عروج في زمام الأمور بالساحل الأوسط للجزائر، بحيث أقدم على تصفية الجو السياسي الذي يحتمل ان يكون عائقا لتوسعاته، فاعتبر أمر القضاء أولا على قارة حسن وتحصين المدينة¹⁷ عامل إخلاء الجو وإزاحة منافس، الذي يمكن أن يكون عائقا له. ومنه أقدم عروج على تصفية المناخ السياسي له وبالتالي مهد بما يناسب توجه العثمانيين لبسط سيطرتهم ثم تمّ الحاق المدينة بدار السلطان حيث ضمها عروج لمدن دار السلطان وهي في طرفها الغربي، لتستفيد من التبعية المباشرة للداي¹⁸.

4. 4. البيئة الطبيعية والأراضي الزراعية:

استغل المحليون والأندلسيون الوافدون الأراضي الزراعية التي تحيط بمدينة شرشال وهي أراضي فلاحية جميلة جيدة¹⁹. وقد ورّع الأندلسيون الأراضي بينهم²⁰، فأصبح لهم منها الإنتاج الفلاحي من "...فواكه حسنة كثيرة وسفرجل ... وبها كروم، وبعض شجر التين ... لأهلها مواش وأغنام كثيرة". وقد اشتغل الأندلسيون بخدمة الأرض "حتى صارت لهم الأراضي المزروعة الممتدة وأشجار كثيرة الكروم والزيتون..."، كما قاموا بغرس عدد من اشجار التوت "... على حد تعبير كربخال وهذا لخصبة الأراضي حول المدينة²¹.

4. 5. الثروة الغابية:

تمتلك مدينة شرشال حولها ثروة غابية مهمة، ففي شرقيها توجد غابة "المومس" التي تحتوي على أشجار عظيمة مثل أشجار الأرز والصفصاف والفلين والرند²². إضافة إلى شجر البلوط والصنوبر بأنواعه²³. على مقربة من هذه الغابة جبل داخل البحر يسميه البحارون بادية تنس، ولا يجوز لأحد أن يقطع الأخشاب من هذا الجبل إذا لم يرخص له بذلك عامل الجزائر الذي جعل عليها حراسة دائمة²⁴. كما تكمن أهمية

¹⁵- عبد القادر، نور الدين، 2006م، ص. 50.

¹⁶- عبد الرحمان بن محمد، الجيلالي، 2007م، ص. 40.

¹⁷- يشير كلّ من حسن الوزان، وبن حموش، إلى نفس الحدث.

¹⁸- BENHAMOUCHE, M., 2008, p. 229.

¹⁹- حسن، الوزان، 2007م.

²⁰- عبد القادر، نور الدين، 2006م، ص. 61.

²¹- مارمول، كربخال، 1989م، ص. 356.

²²- نفسه، ص. 358.

²³- درياس، لخضر، 2007م، ص. 86، عن: هايدو.

²⁴- مارمول، كربخال، 1989م، ص. 358.

الجبل في الجهة الشرقية للمدينة في أنه استغل للمراقبة منه بحيث مكن ارتفاعه من مراقبة البحر بحيث "يستطيع الناظر فوقه أن يرى سفينة في البحر"²⁵.

4.6. المنابع المائية:

توفرت لمدينة شرشال مصادر التموين بالمياه سواء للشرب أو سقي الأراضي، حيث احتوت على نهر في الجهة الشرقية²⁶ إضافة إلى وجود مياه جارية وأبار عذبة وعيون كثيرة وكانت تستخرج المياه بها باستعمال أنابيب القصب. كما يشير ناصر الدين سعيدوني إلى أنّ الأندلسيين استغلوا منابعين للماء عذبين ووافرين في المرتفعات الشمالية الشرقية للمدينة، ساهموا به في تموين المدينة والمحيط بها بالماء وذلك في قنوات مصنوعة من الفخار والطين المعالج²⁷.

4.7. البيئة البشرية:

عرفت شرشال تأثير ثلاث أقطاب أساسية أو بالأحرى ثلاث أنواع من التركيبة البشرية لكل منها مساهمتها في إثراء وتعزيز الأرضية الحضرية، هم السكان المحليون الذين قال عنهم كرخال "على وفاق مع الأتراك لأنهم احسنوا لقاء بارباروس عندما نزل بها وعرضوا عليه المرسى لإقامة رصيف حاجز يحمي سفنه من الرياح، ولكنه لم يبن ذلك الرصيف لأنه أقلع في اتجاه الجزائر"²⁸.

نذكر إضافة إلى ذلك الجماعات الأندلسية الوافدة إلى المدينة بدءا من القرن الخامس عشر حيث استقبلت الأندلسيين. ووصفت المدينة بالكبيرة من طرف حسن الوزان لعدد السكان الكبير بها. ثم يأتي العثمانيون كتركيبة بشرية ثالثة أسهمت بدعمها السياسي العسكري ولكن لم يكن لعدددهم الشيء المحسوس.

- جهود الجالية الأندلسية:

يتضح دور الأندلسيين الذين تميزوا بالتحضر. ففي القرن الخامس عشر ارتبط الوفود الأندلسية بميلاد جديد للمدينة، حيث استمر وفودهم بما قدمه خير الدين سنة 935هـ/ 1529م، والذي أرسل المراكب لنقلهم... فنزل كثير منهم بالجزائر فأكرم مთواهم ورحب بهم أهل الوطن²⁹ وممن قصد مدينة شرشال الغرناطيون الذين أعادوا بناء عدد مهم من دورها...، فعاشوا في رخاء دائم حتى أصبحوا يسكنون في مائتين وألف بيت، ولم يخضعوا إلا لبربروس الذي لم يؤدي له مع ذلك خراجا سنويا أكثر من ثلاثمائة متقال³⁰. كما يذكر "مدينة شرشال كانت خالية من السكان وقد عمرت من قبل مهاجري غرناطة" إذا عمرها

²⁵ - "على بعد أكثر من عشرين فرسخا"؛ مارمول، كرخال، 1989م، ص. 356.

²⁶ - نفسه.

²⁷ - سعيدوني، ناصر الدين، 2013م، ص. 46.

²⁸ - مارمول، كرخال، 1989م، ص. 356.

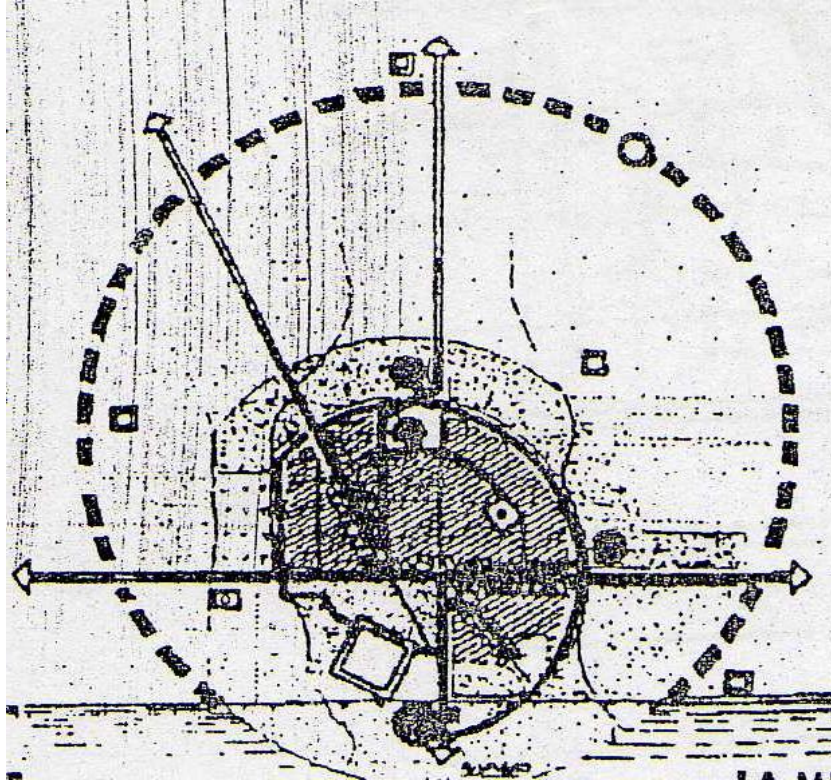
²⁹ - عبد القادر، نور الدين، 2006م، (بتصرف)، ص. 61.

³⁰ - حسن، الوزان، 1983م، ص. 34.

الأندلسيون³¹ واتّخذوا من شرشال قاعدة لهم وقوي فيها شأنهم وكثر عددهم. فقام بعضهم ببناء القلعة والدور التي رأوا فائدة في إصلاحها.³² وعن دورها يصفها المؤرخون بأنها "... تظهر في البحر عند هدوئه دور عديدة غمرتها المياه، وبعض هذه الدور ما يزال قائما برمته إلا ما كان من سقوفها المنهارة، وليست هذه المدينة في وقتنا الحاضر محاطة بأسوار"³³، "...وشيئا فشيئا قام العمران بهذا السهل على أيدي المدجنين وأهل تاكارت ومسلمي الأندلس المتصفين بالشهامة والحقق..."³⁴.

5. التطور العمراني لمدينة شرشال ومظاهره:

يعتبر البحر والوديان والجبال عوامل طبيعية ساهمت في تحديد الإمتداد العمراني لمدينة شرشال وتوجيهه. (الشكل 02). وكان نتيجة التطور العمراني أن انتعشت المدينة من جديد. وشواهدا المادية الحالية تثبت ذلك في مواقعها في حيز محمي رسميا في إطار الدراسات الحديثة (الشكل 03).



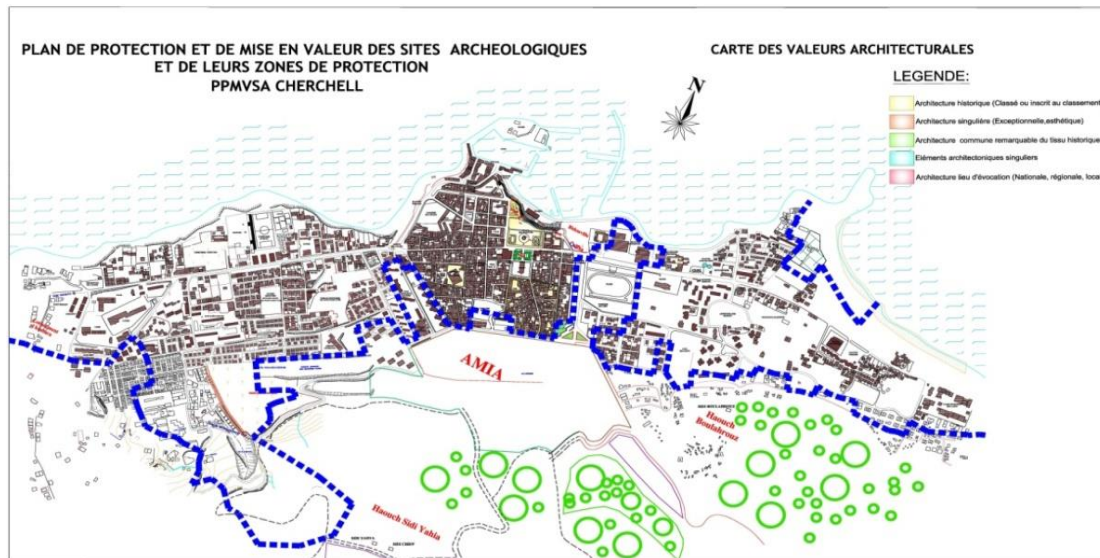
الشكل 02: مدينة شرشال في الفترة العثمانية. عن: يوسف شناوي.

³¹- أبو القاسم، سعد الله، 1990م، ص. 182.

³²- مارمول، كريخال، 1989م، ص. 356.

³³- نفسه.

³⁴- نفسه.



الشكل 03: حدود المواقع الأثرية المحمية بمدينة شرشال. عن: المتحف الجديد بشرشال.

5.1. حي عين القصيبة:

قام الأندلسيون بإنشاء حيهم (القصبة، النواة الأولى لمدينة شرشال المعاصرة) وذلك سنة 1496 هـ. 1511م قبل وصول العثمانيين إلى الجزائر، وهو مصنف بتاريخ 03 / 11 / 1999م (تحت رقم 87)³⁵. وبعد استقرار الأندلسيين في المدينة (موضع حي عين القصيبة حالياً) والذين لم يقدوا على استغلال مساكن سابقة وإنّ ما تؤكده المراجع أنهم أنشأوا مبانيهم بما يتوافق وتحقيق ترابطهم وبقاءهم ملتحمين وبالتالي تحقيق أمنهم. والعامل المهم أن كان منهم من لهم دراية بقواعد البناء.

يعد حي عين القصيبة المركز العمراني الأول لمدينة شرشال منذ نهاية القرن السادس عشر، وتحفظ المدينة بأولى ملامح الأثر المعماري فيه للوافدين الأندلسيين، حيث امتلكوا أغلب المساكن والتي أصبح عددها اثنتي عشر ألفاً. وصممت المساكن في شكل التضام، بحيث حققت التقارب والانس بين الأندلسيين الوافدين.... وهو ما يعبر تعبيراً حقيقياً عن التلاحم الاجتماعي بينهم، (كيف لا وقد فقدوا أهاليهم وديارهم وأقاموا بأرض جديدة احتضنتهم). وقد ضم الحي سنة 1496م حوالي ألف ومائتين عائلة أندلسية³⁶.

من المعالم المعمارية الأثرية الباقية داخل سور المدينة خلال الفترة العثمانية نجد المسجد أو مسجد مائة عرصة والذي بناه الأندلسيون بالمدينة سنة 980هـ / 1573م³⁷ (الصورة 02). ومن الدور على سبيل الذكر لا الحصر، دار الغبريني (الصورة 03)، دار "المدرسة الراشدية" حالياً (الصورة 04)³⁸، وعدد من الحمامات منها حمام سيدي يونس (الصورة 05).

³⁵ مديرية الثقافة لولاية تيبازة.

³⁶ SHAW, T., 1830, p. 268.

³⁷ ناصر الدين، سعيدوني، 2013م، ص. 133.

³⁸ Les Fiches diagnostics des architectures, PPMVSA DE CHERCHELL, Janvier 2012 (plans de protection et de mise en valeur des site archéologiques).

أما خارج سور المدينة فما يزال الفندق (الخان) (الصورة 06) في الجهة الشرقية للمدينة، ويليه ضريح سيدي الغبريني يلي هذا الأخير فندق ثاني في نفس الجهة والذي بقي منه جزء من جداره.



الصورة 03: دار الغبريني



الصورة 02: مسجد مائة عرصة بين مساكن الحي
(عن قول إيرث)



الصورة 06: الخان



الصورة 05: حمام سيدي يونس



الصورة 04: المدرسة الراشدية

2.5. التحصين والمعالم العسكرية:

إنَّ أوَّل ما عرفت المدينة من مظاهر التعمير كان بناء البرج . القلعة . الذي أمر به عروج سنة 922هـ/ 1516م وتم تشييده سنة 924هـ/ 1518م. (الصورة 07)، و(الصورة 08) وعين بالمدينة قائداً مع عشرة نبلاء. وكان موضع البرج شمال ساحة الشهداء، واستقرت الحامية في حدود واد الهشم في برج الخميس 2 كلم قبل مناصر الحالية. وهدم هذا البرج في الفترة الإستعمارية، تحديداً سنة (1860م)³⁹. وبهذا البرج استطاع العثمانيون أن يدعموا دفاعيات المدينة ضد الغزوات الأجنبية، مثل حملة أندري دوريا (Andre Doria) سنة (1530م)⁴⁰. حيث احتوت المدينة دفاعيات ورجاليات خاصة المدفعية التي تتوفر عليها⁴¹.

³⁹- عبد القادر، نور الدين، 2006م، ص. 50.

⁴⁰- درياس، لخضر، 2007م، عن: RANG, S.; DANIS, F., 1857, p. 245.

⁴¹- درياس، لخضر، 2007م، ص. 156؛ عن: MONCHICOURT, C., 1925, p. 459.



الصورة 07: الآثار الباقية من برج عروج بعد الهدم؛ عن: أرشيف المكتبة الوطنية.



الصورة 08: اللوحة التأسيسية لبرج عروج معروضة بمتحف شرشال



الصورة 09: نماذج لمدافع الفترة العثمانية في المتحف الجديد بشرشال.

5.3. أهم الصنائع خلال الفترة العثمانية:

يمكن أن نركّز على فئة الأندلسيين كعناصر فاعلة في الصناعة والإنتاج، لأنّ المحليين على ما يرجح قد مالوا إلى خدمة الأرض. وكان من فطنة هؤلاء أن اختاروا بأنفسهم الأمكنة التي توافقه للقيام فيها بصناعة أو زراعة. حيث "أتوا بصناعاتهم المتعددة مع ما لهم من مهارة ونشاط ودراسة في جميع الشؤون..." وقد كانت حياتهم في البلاد التي خرجوا منها... حياة ترف ورفاهية بلباسهم الخاص الممتاز وطبخهم الرفيع واستفادت الجزائر منهم في جميع الميادين الاجتماعية والصناعية والإقتصادية والعلمية والأدبية...⁴².

وحسب حنيفة هلايلي فإن الأندلسيين الوافدين إلى الجزائر خلال الفترة العثمانية صنفوا إلى ثلاث فئات حسب نشاطاتها الإقتصادية ومكانتها الاجتماعية.

- فئة الفلاحين:

انتشروا في السواحل وفي سهول متيجة ومرتفعات الساحل وسفوح الأطلس وامتهنوا الزراعة وغرس الأشجار المثمرة.

- فئة الحضر: أقامت بالمدن وفحوص دار السلطان والبلدية والقلعة وشرشال.

امتهنوا صناعة الأسلحة وتحضير البارود والحدادة والبناء والخياطة وصناعة الفخار والتجارة، وعملوا في المناصب الإدارية والدينية والعسكرية.

- فئة البحارين: كانت تعيش بالقرب من الموانئ وفي أحياء بحرية وامتهنت زراعة الخضر والفواكه وعملت في الملاحة وأشرف على تزيين الحدائق والبساتين.

أ. صناعة السفن:

إنّ ما استخرج مؤخرا من مدافع (الصورة 09) وقنابل من البحر في شرشال لخير دليل على الاستخدام المحلي لها وبالتالي الدور الحربي الذي عرفته المدينة، كما ساهم الأندلسيون في ذلك فقد كانوا على دراية باستخدام السلاح الناري كما انهم تقلدوا مناصب في الإدارة والجيش⁴³.

عن صناعة بناء السفن يشير هايدو (HAEDO) أن منطقة شرشال وغاباتها الكثيفة كانت تستغل في ذلك، سواء بدار الصناعة بشرشال نفسها⁴⁴ والتي (دار الصناعة في شرشال) توقفت في وقت لاحق. وقد صنع بشرشال كثيرا من السفن للملاحة وما هو مؤكد أنّه "كانت هناك أنواع السفن المستخدمة في الجزائر منذ سنة 1737م وحتى 1830م وجميعها كانت تصنع في دور الصناعة بالجزائر وشرشال وعنابة وجيجل) والمستخدمات والتي كانت تصنع بالمراكز السابقة نذكر: الشطيات، والصنادل، والشينيات، ونصف الشينيات، والأغربة، والفرقاطات، والغليوطات، والشلويات اللنجور، واللنتشون، والبلاندر، والفلايك وغيرها وأنّ (النوع

⁴²- عبد القادر، نور الدين، 2006م، ص ص. 61، 62.

⁴³- عزوق، عبد الكريم، 2007م-2008م، ص. 03.

⁴⁴- أو بدار صناعة مدينة الجزائر وكان يتم نقلها إليها عن طريق أناس مأجورين أو الأسرى المسيحيين؛ يراجع: درياس، لخضر، 2007م، ص ص. 65، 68، 222، 223 (بتصرف).

المعروف والمصنوع في شرشال كان تسليحها بمدفع أو مدفعين أو ثلاثة مدافع، هذا بالنسبة للسفن الصغيرة ويجعل حمولة السفن الكبيرة من عدد المدافع. وكانت "غابة المومس مصدرا للأخشاب حيث منها تقطع الأخشاب التي تحمل الى مدينة الجزائر بقصد صنع السفن"⁴⁵. ودار الصناعة في شرشال توقفت في وقت لاحق.

ب- صناعة الحرير:

اعتبر انتاج الحرير والصناعة الحريرية من أهم ما امتهنه الأندلسيين بشرشال، حيث كان أهمّ مواردهم فقد سهلت البيئة في انتاجه والقيام بأعماله ونشاطاته⁴⁶ حيث اشتغلوا بصناعة الحرير، إذ وجدوا بالمنطقة كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود⁴⁷. وعدّ هذا من المظاهر الفنية الصناعية الراقية التي تشرفوا بها وقد سبق وأن اعتادوا على أرقى الصناعات وكرامة العيش.

الخاتمة والنتائج:

حققت مدينة شرشال في مسارها التاريخي عمراناً اشتركت فيه عدة عوامل ساهمت بقدر كبير في تكامله وكان كانت ثلاثة عوامل أساسية في ذلك التكامل. فالموقع الساحلي أكبر ما منح لهذه المدينة جذبا واستغلا لا من طرف الأندلسيين والعثمانيين. وفي هذا السياق تستبعد المصادر والمراجع الإشارة المباشرة لدور السكان المحليين في النشاط العمراني وتطويره، إلا أننا نكاد نجزم أنهم بقدر في تعمير المدينة. بمعرفة وبتتبع قواعد التعمير نصل حتما إلى تأكيد الحضرية التي اعتمدت في مدينة شرشال خلال الفترة العثمانية، حيث نلاحظ أنها كانت ركيزة تطورها العمراني حيث المدة الزمنية (ثلاثة قرون كانت كافية لأن تنتقل المدينة إلى الحضرية). ومع الانفتاح على البحر وعلاقة مدينة بمدينة الجزائر إداريا، وسياسيا، واقتصاديا ساهم في الرفع من أهمية المدينة وبالتالي شهرتها.

من خلال تطور النسيج العمراني للمدينة الأم، بدءا من الطرف الساحلي إلى القصبة (حي عين القصيبة) إلى سورها، هو مظهر عمراني متكامل لا يمكن حصره في عاملين أو ثلاثة، حيث تضمن أنواعا من العمارة بين المسجدية والمدنية (المساكن والحمامات والمخبرة...) هذا فيما يخص داخل سور مدينة أما خارجه فنجد عددا آخر من المباني المكمل للنشاط العمراني كالفندق (الخان) والضريح (الزاوية) والمقبرة والأبراج. إضافة إلى الأراضي الزراعية حولها والوديان والجبال.

كما أنّ الاستغلال الأمثل والعملية للمعطيات البشرية والطبيعية هو ما بعث النقلة نحو الحضرية وتخطي مرحلة الفراغ العمراني. فكان للأندلسيين الوافدين مساهمتهم مساهمة عملية، في تحضر المدينة في ميادين

⁴⁵- مارمول، كريخال، 1989م، ص. 358.

⁴⁶- نفسه، ص. 356.

⁴⁷- عبد القادر، نور الدين، 2006م، ص. 61. (بتصرف).

عدة بنائية وصناعية وزراعية. كما يعتبر الدعم المادي والمعنوي للعثمانيين لهم عامل مهم في اقدمهم على أعمال تعمير.

يمكن الإشارة إلى أن عملية احياء وبعث الموروث العمراني لمدينة شرشال والذي ما تزال ملامحه تعكس الصورة النمطية للفترة العثمانية، إنما تتشارك فيه جهود الباحثين المتخصصين في علم الآثار بما فيهم المتخصصين في الصيانة والترميم بالموزة مع المؤسسات الرسمية للدولة والمجتمع المدني لإرساء البنى الكفيلة بدوام استغلال هذا الموروث.

قائمة الببليوغرافيا:

1. البكري، أبو عبيد الله، (ب. ت)، المسالك والممالك، للمغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
2. الجيلالي، عبد الرحمان بن محمد، 2007م، تاريخ الجزائر العام، 3، دار الأمة، الجزائر.
3. درياس، لخضر، 2007م، المدفعية الجزائرية في العهد العثماني، دار الحضارة، الجزائر.
4. سعد الله، أبو القاسم، 1990م، تاريخ الجزائر الثقافي، 1، دار الغرب الإسلامي، لبنان.
5. سعيدوني، ناصر الدين، دراسات أندلسية: مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي في الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.
6. شوفالييه، كورين، 2007م، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة الجزائر، 1510م-1541م، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر.
7. عبد القادر، نور الدين، 2006م، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، دار الحضارة، الجزائر.
8. عزوق عبد الكريم، 2007م-2008م، المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية غير منشورة، جامعة الجزائر.
9. كربخال، مارمول، 1989م، إفريقيا، 2، ترجمة عن الفرنسية (محمد حاجي وآخرون)، الرباط.
10. الوزان الفاسي، حسن بن محمد، 1983م، وصف إفريقيا، 2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان.

11. ACHOURE, C., 2011, Dictionnaire des Localités d'Algérie (villes, ksars et douars, hameaux, mechtas et lieux-dits), Casbah, Alger.

12. BENHAMMOUCHE, M., 2008, Dar es sultan, L'Algérois rural a l'époque ottomane, dar el bassair.
13. Fiches diagnostics des architectures, PPMVSA DE CHERCHELL, Janvier 2012 (plans de protection et de mise en valeur des site archéologiques.
14. MONCHICOURT, C., 1925, « Rapport maritime, militaire et politique sur la côte d'Afrique depuis le Nil jusqu'à Cherchell par deux membres de l'Ordre de Malte (1er septembre 1587) », in Revue Africaine, 66, p. 459.
15. MOUKRAENTA, ABED, B., 2012, L'Image de l'Algerie antique, au travers des sources arabes du moyen âge, 2, Alger.
16. RANG, S. ; DANIS, F., 1857, Fondation de régence d'Alger, 1, Paris.
17. SHALLER, W., 1830, Esquisse de L'Etat d'Alger, traduction m x Bianchi, Paris.
18. SHAW, T., 1830, Voyage dans la régence d'Alger, ou description géographie, physique, philologique de cet état; traduction J. McCarthy, Paris.